

شَرْحُ مَنْظُومَةٍ

مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ

وَالْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لَهَا

لِنَاظِمِهَا

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طَوْقٍ الْمُرِّيِّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَا (١) قُلُوبَ مَنْ لِحُبِّهِ قَدْ شَمَّرَا
- ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدُ وَالسَّلَامُ (٢) عَلَى الَّذِي انْجَلَى بِهِ الظَّلَامُ
- أَكْرَمَ خَلْقِ اللَّهِ طُرًّا مَحْتِدَا (٣) نَفْسِي وَأُمِّي وَأَبِي لَهُ الْفِدَا
- هَذَا وَحُبُّ الْمَلِكِ الْفَتَّاحِ (٤) قُوْتُ الْقُلُوبِ وَغِذَا الْأَزْوَاحِ
- وَأَهْلُهُ فِي أَطْيَبِ الْحَيَاةِ (٥) وَغَيْرُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ
- تَاللَّهِ قَدْ فَازَ الْمُحِبُّ بِالشَّرَفِ (٦) وَحَازَ فِي الْأُخْرَى أَعَالِي الْغُرَفِ
- (مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِهِ الْمُدَلِّلِ (٧) يَمْشِي رُؤَيْدًا وَيَجِي فِي الْأَوَّلِ)
- فَانْهَضْ أَخِي وَادْلِجْ وَأَسْجِرَا (٨) (عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى)
- وَهَاكَ عَشْرَةٌ بِهَا تَرْقَى إِلَى (٩) مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا
- مِنْ دُرَرِ الْعَلَامَةِ ابْنِ الْقَيْمِ (١٠) فِي سِلْكِ هَذَا الرَّجَزِ الْمُتَمَنِّمِ
- تَدْبُرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ سَبَبٌ (١١) تَقَرُّبٌ^٢ بِالنَّفْلِ بَعْدَ مَا وَجَبَ^١
- دَوَامُ ذِكْرِهِ بِكُلِّ حَالٍ (١٢) بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ^٣

- إِثَارُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ عَلَى (١٣) مَا تَرُغِبُ النَّفْسُ بِهِ وَإِنْ حَلَا
شُهُودُ قَلْبِكَ جَلَالَ الرَّبِّ (١٤) وَبِرَّهُ كَذَا انكِسَارُ الْقَلْبِ
وَحَلُوءُ وَقْتِ نُزُولِ اللَّهِ (١٥) صُحْبَةُ كُلِّ صَادِقٍ أَوَاهِ
وَالْبُعْدُ عَنْ كُلِّ الَّذِي يَحُولُ (١٦) فَهَذِهِ عَشْرٌ بِهَا الْوُصُولُ
طُوبَى لِعَبْدٍ مُخْبِتٍ لِرَبِّهِ (١٧) قَدْ مَلَأَ الْحُبُّ شَغَافَ قَلْبِهِ
بَاحٍ بِمَا فِي صَدْرِهِ طَوَاهُ (١٨) إِلَى الَّذِي لَا يُرْتَجَى سِوَاهُ
يُذِيعُ دَمْعَ الْعَيْنِ مَا فِي رُوعِهِ (١٩) وَيَكْشِفُ الْمَكْنُونِ فِي ضُلُوعِهِ
كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدٍ بَائِسٍ (٢٠) يَنْدُبُ سُعْدَى عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ
حَدَا بِكَ الْحَادِي فَقُلْ: لَبَّيْكَ (٢١) إِنِّي إِلَهِي تَائِبٌ إِلَيْكَ
يَا رَبِّي ارْزُقْنَا تَمَامَ حُبِّكَ (٢٢) وَهَبْ لَنَا مَا نَرْتَجِي مِنْ قُرْبِكَ
وَاعْفِرْ لَنَا وَعَافِنَا مَوْلَانَا (٢٣) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي أُخْرَانَا
قَدْ انْتَهَى بِحَمْدِ رَبِّي نَظْمِي (٢٤) وَبِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَتْمِي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ^(١).

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَنَزِلَةَ الْمَحَبَّةِ مِنْ أَجَلِّ مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وَعَلَيْهَا تَفَانَى الْمُحِبُّونَ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ، وَإِلَى عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ، فَاسْتَنَارَتْ قُلُوبُهُمْ، وَوَجَدُوا مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَلَذَّةِ الطَّاعَةِ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَلَا يُحَاطُ بِوَصْفِهِ.

وَكَلَّمَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ أَكْمَلَ، كَانَتْ الْحَلَاوَةُ وَاللَّذَّةُ وَالسُّرُورُ وَالنَّعِيمُ أَتَمَّ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: "مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا". قِيلَ: "وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟" قَالَ: "مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالتَّوَكُّلُ بِذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ". وَقَالَ آخَرُ: "وَاللَّهُ مَا طَابَتْ الدُّنْيَا إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَلَا الْجَنَّةُ إِلَّا بِرُؤْيَيْتِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ".

وَإِذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ بِهَذِهِ الْمَنَزِلَةِ، فَحَرِيٌّ بِالْعَبْدِ أَنْ يَسْتَفْرِغَ وَسْعَهُ وَطَاقَتَهُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَالتَّحَقُّقِ بِصِفَاتِ أَهْلِهَا. لِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُدَارَسَةُ لِمَنْظُومَةِ مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَالْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لَهَا.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُبَلِّغَنَا مَنَازِلَ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

(١) أصل هذه الأوراق لقاء علمي نظَّمه مركز النبل لقراءة واستشراح «منظومة محبة الله جل جلاله والأسباب الجالبة لها» كان في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ١٤٤٧ هـ، وقد اطلع الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها، فراجعها وأعاد صياغة مواضع يسيرة منها بما يناسب الكتاب المقروء. (رابط الشرح المسموع) (رابط آخر للشرح المسموع).

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَا (١) قُلُوبَ مَنْ لِحُبِّهِ قَدْ شَمَّرَا
ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدُ وَالسَّلَامُ (٢) عَلَى الَّذِي انْجَلَى بِهِ الظَّلَامُ
أَكْرَمَ خَلْقِ اللَّهِ طُرًّا مَخْتِدَا (٣) نَفْسِي وَأُمِّي وَأَبِي لَهُ الْفِدَا

ابْتَدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي نَوَّرَ قُلُوبَ مَنْ شَمَّرَ وَجَدَّ فِي تَحْقِيقِ مَحَبَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا. وَالتَّشْمِيرُ فِي الْأَمْرِ: السَّرْعَةُ فِيهِ وَالْخِفَّةُ، وَمِنْهُ قِيلَ: شَمَّرَ فِي الْعِبَادَةِ إِذَا اجْتَهَدَ. وَقَدْ أَشْعَرَ فِي أَوَّلِ نَظْمِهِ بِمَقْصُودِهِ، وَأَنَّ الْمَنْظُومَةَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: "الَّذِي قَدْ نَوَّرَا قُلُوبَ مَنْ لِحُبِّهِ قَدْ شَمَّرَا" ثُمَّ ثَنَّى بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي انْجَلَى -أَيَّ انْكَشَفَ وَذَهَبَ- بِهِ الظَّلَامُ. فَقَدْ كَانَ الْخَلْقُ فِي ظُلْمَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا نُورَ يُهْتَدَى بِهِ فِي ظُلُمَاتِهَا، وَلَا عِلْمَ يُسْتَدَلُّ بِهِ فِي جَهَالَاتِهَا، حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَضَاءَ اللَّهُ بِهِ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الْجَهَالَاتِ، فَأَصْبَحَ أَهْلُ الْإِسْتِقَامَةِ قَدْ وَضَحَ لَهُمُ الطَّرِيقُ، وَاسْتَنَارُوا بِهَذَا السَّرَاجِ الْمُنِيرِ الَّذِي أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

"أَكْرَمَ خَلْقِ اللَّهِ طُرًّا" أَيَّ جَمِيعًا "مَخْتِدَا" الْمَخْتِدُ: الْأَصْلُ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى كِنَانَةَ مَنْ وَلَدَ إِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ، وَاضْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" (١). فَهُوَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ وَخِيَارُ الْخِيَارِ "نَفْسِي وَأُمِّي وَأَبِي لَهُ الْفِدَا".

وَالْإِبْتِدَاءُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هُوَ مِنْ آدَابِ التَّصْنِيفِ، وَالْإِجْمَاعُ الْعَمَلِيُّ مِنَ الْمُصَنِّفِينَ عَلَيْهِ. ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى مَقْصُودِهِ فَقَالَ:

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٧٦).



هَذَا وَحُبُّ الْمَلِكِ الْفَتَّاحِ (٤) قُوْتُ الْقُلُوبِ وَغِذَا الْأَزْوَاجِ

مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ قُوْتُ الْقُلُوبِ وَغِذَا الْأَزْوَاجِ وَقُرَّةُ الْعُيُونِ، بَلْ كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "لَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةٌ وَلَا نَعِيمٌ وَلَا فَلَاحٌ وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا، فَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلَمُهُ أَعْظَمَ مِنْ أَلَمِ الْعَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا، وَالْأُذُنُ إِذَا فَقَدَتْ سَمْعَهَا، وَالْأَنْفُ إِذَا فَقَدَتْ شَمَمَهَا، وَاللِّسَانُ إِذَا فَقَدَ نُطْقَهُ، بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِيهِ وَإِلَهِهِ الْحَقِّ أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ الْبَدَنِ إِذَا خَلَا مِنَ الرُّوحِ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ" (١).

وَأَهْلُهُ فِي أَطْيَبِ الْحَيَاةِ (٥) وَغَيْرُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ

مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "هِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مِنْ حُرْمَتِهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ، وَالنُّورُ الَّذِي مِنْ فَقْدِهِ فَهُوَ فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي مِنْ عَدَمِهِ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ" (٢).

تَاللَّهِ قَدْ فَازَ الْمُحِبُّ بِالشَّرَفِ (٦) وَحَازَ فِي الْأُخْرَى أَعَالِي الْغُرَفِ

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "تَاللَّهِ لَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُهَا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِذْ لَهُمْ مِنْ مَعِيَّةِ مَحْبُوبِهِمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ. وَقَدْ قَضَى اللَّهُ يَوْمَ قَدَرِ مَقَادِيرِ الْخَلَائِقِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ أَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَيَا لَهَا نِعْمَةً عَلَى الْمُحِبِّينَ سَابِغَةً" (٣).

وَمِنْ الشَّرَفِ الَّذِي يَفُوزُ بِهِ الْمُحِبُّ الصَّادِقُ: ذَوْقُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَلَذَّتِهِ وَسُرُورِهِ. قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا..." (٤) الْحَدِيثُ.

(١) الداء والدواء ص ٥٤.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٥).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٦)، مسلم في «الصحيح» (٤٣).

وَمِنْ ذَلِكَ: الْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ. قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ حُرِّمَ عَلَى النَّارِ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ: إِيْمَانٌ بِاللَّهِ، وَحُبٌّ لِلَّهِ، وَأَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ فَيُحْرَقَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ" (١).

(مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِهِ الْمُدَّلِّلِ (٧) يَمْشِي رُوَيْدًا وَيَجِي فِي الْأَوَّلِ)
قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الْمُحِيطِ: "تَاللَّهِ لَقَدْ سَبَقَ الْقَوْمُ السَّعَاةَ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْفُرْشِ نَائِمُونَ، وَلَقَدْ تَقَدَّمُوا الرِّكْبَ بِمَرَا حِلٍّ وَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ وَاقِفُونَ". ثُمَّ أَنْشَدَ قَوْلَ الرَّاجِزِ:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَّلِّلِ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ (٢)

فَانْهَضَ أَخِيَّ وَادَّلَجَ وَأَسْحَرَ (٨) (عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ)
يُقَالُ: أَدَّلَجَ إِذَا سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَادَّلَجَ إِذَا سَارَ مِنْ آخِرِهِ. وَأَسْحَرَ: سَارَ فِي وَقْتِ السَّحَرِ أَوْ نَهَضَ لِيَسِيرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَالشَّرِيَّ: سَيْرٌ عَامَّةُ اللَّيْلِ.

يَقُولُ: إِذَا عَرَفْتَ مَا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ ثَمَرَاتٍ، وَأَنَّهَا قُوَّةُ الْقُلُوبِ وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ وَقُرَّةُ الْعُيُونِ، وَأَنَّهَا الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ، وَأَنَّ أَهْلَهَا هُمْ أَهْلُ الْفَوْزِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّهَا تُورِثُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالسَّعَادَةِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَسُرُورِ النَّفْسِ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ وَلَا يُحَاطُ بِوَصْفِهِ، فَلَا فَوْزَ فَوْقَ فَوْزِهِمْ، وَلَا سَعَادَةَ فَوْقَ سَعَادَتِهِمْ، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِمْ؛ إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَحَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَنْهَضَ بِهِمَّتِكَ، وَأَنْ تَجْتَهِدَ فِي طَلَبِ الْوُصُولِ إِلَى مَحَبُّوبِكَ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنْ تُوَاصِلَ مَسِيرَكَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تَغْتَنِمَ الدُّلْجَةَ - وَهِيَ سَيْرُ اللَّيْلِ - حَتَّى تَحْمَدَ عِنْدَ الصَّبَاحِ سُرَاكَ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢١٢٢).

(٢) مدارج السالكين (٣ / ٣٦٦).

"وَتَمَارُ الْمَحَبَّةِ وَآثَارُهَا وَفَوَائِدُهَا وَعَوَائِدُهَا عَلَى الْمُحِبِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا حَصْرَ لَهَا وَلَا عَدَّ. يَكْفِي الْمُحِبَّ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَهُ مُؤَيَّدًا وَحَافِظًا وَمُسَدِّدًا وَمُوفِّقًا. وَفِي خِصْمٍ هَذِهِ الْفِتَنِ الْمُتَوَالِيَةِ وَالصَّوَارِفِ وَالْمُلْهِيَاتِ، قَدْ تَضَعُفُ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ، وَتَضَعُفُ تَبَعًا لِذَلِكَ آثَارُ الْمَحَبَّةِ وَتَمَارُهَا. وَهَذَا يَتَطَلَّبُ مِنَ الْعَبْدِ عَوْدَةً صَادِقَةً بِنَفْسِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، بِاحْتِإٍ عَنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِ مَحَبَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالْأُمُورِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّتِهِ فِي الْقَلْبِ؛ لِيَعُودَ لِلْقَلْبِ صَفَاؤُهُ وَنَقَاؤُهُ وَبَهَاؤُهُ وَضِيَاؤُهُ، وَذَلِكَ بِعِمَارَتِهِ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ"^(١). لَذَا ذَكَرَ بِجُمْلَةٍ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَجْلِبُ إِلَى الْقُلُوبِ مَحَبَّةَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

**وَهَاكَ عَشْرَةٌ بِهَا تَرْقَى إِلَى (٩) مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا
مِنْ دُرَرِ الْعَلَامَةِ ابْنِ الْقَيْمِ (٩) فِي سِلْكِ هَذَا الرَّجَزِ الْمُتَمَنِّمِ**

"هَا" اسْمُ فِعْلٍ أَمْرٍ بِمَعْنَى "خُذْ"، وَالْكَافُ حَرْفُ خِطَابٍ. وَالرَّجَزُ هُوَ الْبَحْرُ الَّذِي عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ. وَالْمُتَمَنِّمُ: الْمُزَخْرَفُ الْمُزِينُ. يَقُولُ: خُذْ عَشْرَةَ أَسْبَابٍ تَرْقَى بِهَا إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنْ "مَدَارِجِ السَّالِكِينَ" لِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً- فَإِنَّهُ عَقَدَ فَضْلًا فِي مَنْزِلَةِ الْمَحَبَّةِ قَالَ فِيهِ: "فَصُلِّ فِي الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَحَبَّةِ وَالْمُوجِبَةِ لَهَا، وَهِيَ عَشْرَةٌ"^(٢)، ثُمَّ ذَكَرَهَا.

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ سَبَبٍ (١١) تَقَرُّبُ بِالْإِنْفِلِ بَعْدَ مَا وَجِبَ

أَعْظَمُ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقَلْبِ: الْعِنَايَةُ الصَّادِقَةُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، تَدَبُّرًا لَهُ وَتَفَهُّمًا لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ، كَتَدَبُّرِ الْكِتَابِ الَّذِي يَحْفَظُهُ الْعَبْدُ وَيُشْرَحُهُ لِيَتَفَهُّمَ مُرَادَ صَاحِبِهِ مِنْهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

(١) أحاديث إصلاح القلوب لفضيلة الشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر (ص ٢٨٥) بتصرف يسير.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٥).

لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢]. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ" (١). فَالَّذِي يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ وَيَتَأَمَّلُهَا، يَجِدُ فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا يَمَلَأُ قَلْبَهُ مَحَبَّةً لِلَّهِ وَإِيمَانًا بِهِ. ذَلِكَ أَنَّهُ يَجِدُ فِي خِطَابِ اللَّهِ مَلِكًا لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ، أَرَمَةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِهِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي أَقْطَارِ مَمْلَكَتِهِ، يَدُلُّ خَلْقُهُ عَلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ، وَيُرْغَبُهُمْ فِيهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِمَّا فِيهِ هَلَاكُهُمْ، يَتَعَرَّفُ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ بِنِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَيَذَكِّرُهُمْ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ إِنْ هُمْ أَطَاعُوهُ، وَيُخَبِّرُهُمْ بِصُنْعِهِ فِي أَوْلِيَائِهِ، وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ حَمِيدَةً، وَيُثْنِي عَلَى أَوْلِيَائِهِ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْسَنِ أَوْصَافِهِمْ، يَقُولُ الْحَقُّ، وَيَهْدِي السَّبِيلَ، وَيَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَيَذَكِّرُ أَوْصَافَهَا وَحُسْنَهَا وَنَعِيمَهَا. فَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُشْهَدُ قَلْبُهُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الَّتِي تَمَلَأُ قَلْبَهُ مَحَبَّةً لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعَلُّقًا بِهِ. وَكَيْفَ لَا؟ وَهُوَ يَجِدُ فِي الْقُرْآنِ مَلِكًا عَظِيمًا رَحِيمًا جَوَادًا جَمِيلًا هَذَا شَأْنُهُ، فَكَيْفَ لَا يُحِبُّهُ، وَيُنَافِسُ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ، وَيُنْفِقُ أَنْفَاسَهُ فِي التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؟ وَكَيْفَ لَا يَصِيرُ حُبُّهُ وَذِكْرُهُ وَالشُّوقُ إِلَيْهِ وَالْأُنْسُ بِهِ قُوَّةَ قَلْبِهِ وَغِذَاءَ رُوحِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ؟ وَبِالْجُمْلَةِ، فَلَا شَيْءَ أَنْفَعَ لِلْقَلْبِ وَأَجْلَبُ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفْهِيمِ، فَإِنَّهُ الَّذِي يُورِثُ الْقَلْبَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ (٢).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٨٧)؛ وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٢٧) مرفوعاً، قال الحافظ ابن رجب في «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (ص ٣٢٨): «والموقوف أصح».

(٢) الفوائد (ص ٣٩-٤١) بتصرف.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ لَأَشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ حَتَّى مَرَّ بِآيَةٍ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِئَةَ مَرَّةٍ، وَلَوْ لَيْلَةً، فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفَهُمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَمْسَةِ بَغِيرٍ تَدْبِيرٍ وَتَفَهُمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الْإِيمَانِ وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ" ^(١). إِلَى أَنْ قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: "فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ هِيَ أَصْلُ صِلَاحِ الْقَلْبِ. وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: "لَا تَهْذُوا الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرَ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ" ^(٢). وَقَالَ أَيْضًا: "اقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هُمْ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ" ^{(٣)(٤)}.

وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - السَّبِيلَ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ فِي صَدْرِ كِتَابِ "الْفَوَائِدِ": "قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ: إِذَا أَرَدْتَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ، فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَاحْضُرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ إِلَيْكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]" ^(٥).

قَوْلُهُ: "تَقَرُّبٌ بِالنَّفْلِ بَعْدَ مَا وَجَبَ":

الثَّانِي مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرَغِّبُ فِي النَّوَافِلِ وَيَحُثُّ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَيُبَيِّنُ فَضْلَهَا. يَشْمَلُ ذَلِكَ السُّنَنَ الرَّوَاطِبَ وَغَيْرَهَا مِنَ النَّوَافِلِ كَصَلَاةِ الضُّحَى وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَلَيْسَ

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٥٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٨٩٧٣). والدَّقْل: رديء التمر ويابسُه.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٨٨٤).

(٤) مفتاح دار السعادة (١ / ٥٣٦).

(٥) الفوائد (ص ٣).

خَاصًّا بِنَوَافِلِ الصَّلَاةِ، بَلْ يَشْمَلُ نَوَافِلَ الصَّيَامِ وَصَدَقَةَ التَّطَوُّعِ وَالتَّطَوُّعَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ سَبَبٌ جَالِبٌ لِمَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجِدَ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةَ اللَّهِ فَلْيَسْتَكْثِرْ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ، فَإِنَّهَا تَرْقِي بِالْعَبْدِ إِلَى سَمَاءِ مَحَبَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ. بَلْ إِنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ يُوَصِّلُ الْعَبْدَ إِلَى دَرَجَةِ "الْمَحْبُوبِيَّةِ" بَعْدَ دَرَجَةِ "الْمَحَبَّةِ"؛ أَيَّ إِلَى أَنْ يُحِبَّهُ اللَّهُ، بَعْدَ دَرَجَةِ أَنْ يُحِبَّ هُوَ اللَّهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: "...وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ..." (١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

دَوَامُ ذِكْرِهِ بِكُلِّ حَالٍ (١٢) بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ

الثَّالِثُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى دَوَامُ ذِكْرِهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ. فَنَصِيبُكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى قَدْرِ نَصِيبِكَ مِنْ ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ. وَذَلِكَ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى جَلَاءَ الْقُلُوبِ وَصِقَالُهَا، فَكُلَّمَا أَزْدَادَ الذَّاكِرُ فِي ذِكْرِهِ اسْتِغْرَاقًا، أَزْدَادَ لِمَذْكُورِهِ مَحَبَّةً وَإِلَى لِقَائِهِ اشْتِيَاقًا.

وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِهِ مُتَلَاذِمَانِ، فَمَنْ أَحَبَّ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ وَلَا بُدَّ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ مَحَبَّتَهُ وَلَا بُدَّ. لِذَلِكَ قَرَنَ بَيْنَهُمَا الشَّيْخُ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي مَنْظُومَتِهِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ فَقَالَ:

وَهُمُ الَّذِينَ مَلَا إِلَهُ قُلُوبَهُمْ بِوَدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ
وَهُمُ الَّذِينَ قَدَّ اكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي شَرْحِهِ (٢).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٠٢).

(٢) ينظر: شرح منظومة السير إلى الله والدار الآخرة (ص ١٤).

وَلابْنِ الْقِيَمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عِبَارَةٌ جَامِعَةٌ فِي بَيَانِ هَذَا الْمَعْنَى، قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي فَوَائِدِ الذِّكْرِ:

"التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ يُورِثُهُ - أَيِ الذَّاكِرِ - الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ رُوحُ الْإِسْلَامِ وَقُطْبُ رَحَى الدِّينِ وَمَدَارُ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاحِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، وَجَعَلَ سَبَبَ الْمَحَبَّةِ دَوَامَ الذِّكْرِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنَالَ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيُلْهَجْ بِذِكْرِهِ؛ فَإِنَّ الدَّرْسَ وَالْمُذَاكِرَةَ كَمَا أَنَّه بَابُ الْعِلْمِ، فَالذِّكْرُ بَابُ الْمَحَبَّةِ وَشَارِعُهَا الْأَعْظَمُ وَصِرَاطُهَا الْأَقْوَمُ" (١).

وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي الْحَثِّ عَلَى الْإِكْتِسَابِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَبَيَانِ فَضْلِهِ كَثِيرَةٌ، وَأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَى كِتَابٍ جَلِيلٍ فِي هَذَا الْبَابِ، وَهُوَ كِتَابُ "الْوَابِلِ الصَّيْبِ" لِابْنِ الْقِيَمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -. قُطْبُ رَحَى هَذَا الْكِتَابِ، وَإِنْسَانُ عَيْنِهِ، هُوَ بَيَانُ فَضْلِ الذِّكْرِ، وَعَظِيمُ أَثَرِهِ، وَجَلِيلُ مَكَانَتِهِ، وَرَفِيعُ مَقَامِهِ، وَجَزِيلُ الثَّوَابِ الْمَعْدِّ لِأَهْلِهِ الْمُتَصِفِينَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. افْتَتَحَهُ بِذِكْرِ طَائِفَةٍ طَيِّبَةٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ فِي فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، ثُمَّ شَرَعَ يَذْكُرُ فَوَائِدَهُ فَذَكَرَ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فَائِدَةً، ثُمَّ عَقَّبَ بِفُصُولٍ نَافِعَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالذِّكْرِ تَقْسِيمًا وَتَقْعِيدًا، ثُمَّ خَتَمَ بِالْأَذْكَارِ الْمُؤَظَّفَةِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُخِلَّ بِهَا وَالَّتِي يَحْتَاجُهَا الْعَبْدُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. لِذَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُوَاطِبَ عَلَى الْأَذْكَارِ الْمَأْثُورَةِ صَبَاحًا وَمَسَاءً وَفِي الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَمَنْ وَاطَبَ عَلَيْهَا كُتِبَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا الَّذِينَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا، وَفَارَ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ، وَالْأُنْسِ بِهِ، وَلَذَّةِ قُرْبِهِ. وَلَوْ لَمْ نَخْرُجْ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ إِلَّا بِهَذِهِ الْفَائِدَةِ، وَهِيَ أَنْ يَكُونَ لَكَ وَرْدٌ عَظِيمٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَحَافُظٌ عَلَيْهِ مُحَافَظَتَكَ عَلَى وَرْدِ الْقُرْآنِ، وَتَحَرُّصٌ عَلَيْهِ كَمَا تَحَرُّصُ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَهَذَا شَيْءٌ إِذَا عَزِمَ لَكَ عَلَيْهِ وَوَقَّكَ اللَّهُ لِتِمَامِهِ، فَأَوَّلُ مَنْ يُصِيبُهُ نَفْعُ ذَلِكَ أَنْتَ، سَتَرَى - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بَرَكَهَ ذَلِكَ فِي نَفْسِكَ وَعِلْمِكَ وَعَمَلِكَ وَدَعْوَتِكَ، وَفِي نَشَاطِ نَفْسِكَ لِلطَّاعَةِ وَإِقْبَالِهَا عَلَى الْخَيْرِ.

قوله: **"بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ"**: ذَكَرَ اللهُ بِالْقَلْبِ تَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ. وَذَكَرَهُ بِاللِّسَانِ هُوَ كُلُّ نُطْقٍ بِمَا يُقَرَّبُ مِنَ اللهِ تَعَالَى مِنْ تَسْبِيحٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَكْبِيرٍ وَتَهْلِيلٍ وَاسْتِغْفَارٍ، وَتَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَذْكَارُ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ وَأَذْكَارُ النَّوْمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَذْكَارِ. وَذَكَرَهُ بِالْجَوَارِحِ كُلِّ فِعْلٍ يُقَرَّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ صَلَاةٍ وَحَجٍّ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ.

إِثَارُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ عَلَى (١٣) مَا تَرْغُبُ النَّفْسُ بِهِ وَإِنْ حَلَا

الرَّابِعُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى إِثَارُ مَحَابِّهِ جَلٍّ وَعَلَا عَلَى مَحَابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى، وَالتَّسَنُّمُ إِلَى مَحَابِّهِ وَإِنْ صَعَبَ الْمُرْتَقَى.

وَعَلَامَةُ إِثَارِ مَحَابِّهِ جَلٍّ وَعَلَا شَيْئَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَفْعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ تَكْرَهُهُ. وَالْآخَرُ: أَنْ تَتْرَكَ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ تُحِبُّهُ.

وَيَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ إِذَا تَفَكَّرَ فِي أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِلْهَوَى الْعَاجِلِ، وَإِنَّمَا خُلِقَ لِلْعَمَلِ لِلْآجِلِ، وَأَنْ يَسِيرَ بِفِكْرِهِ فِي عَوَاقِبِ الْهَوَى، فَيَتَأَمَّلَ كَمْ أَفَاتَتْ طَاعَةُ الْهَوَى مِنْ فَضِيلَةٍ، وَكَمْ أَوْقَعَتْ فِي رَذِيلَةٍ، وَكَمْ أَكَلَتْ مَنَعَتْ أَكَلَاتٍ، وَكَمْ مِنْ لَذَّةٍ فَوَّتَتْ لَذَاتٍ، وَكَمْ مِنْ شَهْوَةٍ كَسَرَتْ جَاهًا، وَنَكَّسَتْ رَأْسًا، وَقَبَّحَتْ ذِكْرًا، وَأَوْرَثَتْ دَمًّا، وَأَعْقَبَتْ ذُلًّا، وَالزَّمَتْ عَارًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، غَيْرَ أَنَّ عَيْنَ صَاحِبِ الْهَوَى عَمِيَاءُ^(١).

كَمْ مِنْ هَوَى أَوْرَثَ ذُلًّا مَا مُحِي	نَكَّسَ رَأْسًا وَرَمَى بِالتَّرَح
كَمْ مِنْ هَوَى قَبَّحَ ذِكْرًا فِي الْوَرَى	أَوْقَدَ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا لَا يُرَى
كَمْ عَاقِلٍ أَرْخَى الزَّمَامَ لِلْهَوَى	حَتَّى إِذَا انْتَهَى بِهِ الدَّرْبُ هَوَى
كَانَ ابْتِدَاءُ أَمْرِهِ مُجُونًا	فَمَا ارْغَوَى حَتَّى غَدَا جُنُونًا

وَمَا ابْتَلَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِمَحَبَّةِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي وَمِيلِ نَفْسِهِ إِلَيْهَا إِلَّا لِيُسَوِّقَهُ بِهَا إِلَى مَحَبَّةِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا وَخَيْرٌ لَهُ وَأَنْفَعُ وَأَدْوَمُ، وَلِيُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهَا لَهُ سُبْحَانَهُ، فَتُورَثُهُ تِلْكَ الْمُجَاهِدَةُ الْوُصُولَ إِلَى مَحْبُوبِهِ الْأَعْلَى. فَكُلَّمَا نَازَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تِلْكَ الشَّهَوَاتِ وَاشْتَدَّتْ مَحَبَّتُهُ لَهَا، صَرَفَ تِلْكَ الْمَحَبَّةَ إِلَى الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى جَلَّ جَلَالُهُ، فَأَوْرَثَهُ ذَلِكَ إِيْمَانًا وَحُبًّا لَهُ سُبْحَانَهُ يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ (١).

شُهُودُ قَلْبِكَ جَلَالَ الرَّبِّ (١٤) وَبِرُّهُ كَذَا انكِسارُ الْقَلْبِ

الخَامِسُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: شُهُودُ قَلْبِكَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. وَكَيْفَ تُحِبُّ مَنْ لَا تَعْرِفُ؟ فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ أَحَبَّهُ لَا مَحَالَةَ. وَكُلَّمَا ازْدَادَتْ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَآكْثَرَ قَلْبُهُ مُطَالَعَتَهَا، ازْدَادَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى. بَلْ كُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَسْتَدْعِي مَحَبَّةً خَاصَّةً. وَالْعِبَادُ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَحَبَّتِهِمْ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى وَالْعِلْمِ بِهِ، فَأَعْرِفُهُمْ بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ حُبًّا لَهُ. وَهَذِهِ دَعْوَةٌ إِلَى الْعِنَايَةِ بِهَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ وَهُوَ بَابُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، بِدِرَاسَتِهِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَعَرَفَ جَلَالَ اللَّهِ وَكَمَالَهُ أَحَبَّهُ حُبًّا لَا يَمِثْلُهُ حُبٌّ. وَالسَّيْرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ طَرِيقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ -: "شَأْنُهُ عَجَبٌ، وَفَتْحُهُ عَجَبٌ، صَاحِبُهُ قَدْ سَبَقَ السَّعَاءَ وَهُوَ مُسْتَلَقٌ عَلَى فِرَاشِهِ، غَيْرَ تَعَبٍ، وَلَا مَكْدُودٍ، وَلَا مُشْتَتٍ عَنْ وَطَنِهِ، وَلَا مُشَرَّدٍ عَنْ سَكْنِهِ" (٢).

قَوْلُهُ: "وَبِرُّهُ":

السَّادِسُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: شُهُودُ قَلْبِكَ بِرَّ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَآلَاءُهُ وَإِحْسَانُهُ وَنِعَمَةُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

(١) الفوائد (ص ١٦٠) بتصرف.

(٢) طريق الهجرتين (١ / ٤٧٠).

وَالْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى مَحَبَّةٍ مِّنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَكَيْفَ بَعْنُ لَا نَرَى الْإِحْسَانَ إِلَّا مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ؟ ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فَلَا أَحَدٌ أَعْظَمُ إِحْسَانًا وَكَرَمًا وَجُودًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّا نَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وَلَوْ كَلَّفَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَصَرِهَا لَا عَتَرَ بِعَجْزِهِ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ عَنْ شُكْرِهَا أَعْجَزُ.

وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مَلِيَّتَانِ مِنْ ذِكْرِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ وَإِحْسَانِهِ وَآلَائِهِ، فَإِذَا تَأَمَّلَ الْعَبْدُ ذَلِكَ انْجَذَبَ قَلْبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْكُلِّيَّةِ. فَاللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هُوَ الَّذِي أَوْجَدَنَا مِنَ الْعَدَمِ بَعْدَ أَنْ لَمْ نَكُنْ شَيْئًا، وَخَلَقَنَا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَصَوَّرَنَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، وَحَفِظَنَا فِي الْمَهْدِ أَطْفَالًا، وَهَيَّا لَنَا حَنَانَ الْأَبْوِينِ وَرَحْمَتَهُمَا، وَرَبَّنَا وَدَبَّرَ أُمُورَنَا بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ، وَصَانَنَا عَنْ كُلِّ مَا يَسُوءُنَا، وَسَخَّرَ لَنَا كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَسَمَاءٍ، وَأَبَاحَ لَنَا الطَّيِّبَاتِ، وَهَدَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَأَكْرَمَنَا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَتَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَرْحَمَهُ وَمَا أَلْفَطَهُ وَمَا أَبْرَهُ وَمَا أَكْرَمَهُ!

وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُشْهَدُ قَلْبُهُ إِحْسَانَ اللَّهِ إِلَيْهِ وَبِرَّهُ بِهِ وَإِنْعَامَهُ وَإِفْضَالَهُ حَتَّى يُحِبَّهُ حُبًّا لَا يَدَانِيهِ حُبٌّ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ تَعَلُّقًا فَوْقَ كُلِّ تَعَلُّقٍ.

قَوْلُهُ: "كَذَا انْكِسَارُ الْقَلْبِ":

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي ذِكْرِ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: "السَّابِعُ -وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِهَا-: انْكِسَارُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَلَيْسَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ الْأَسْمَاءِ وَالْعِبَارَاتِ". انْتَهَى كَلَامُهُ. فَمِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: إِظْهَارُ الْإِفْتِقَارِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْإِنْكِسَارُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَلَى هَذَا قَامَ أَمْرُ الْمَحَبَّةِ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ السُّبُلِ لِتَحْصِيلِهَا إِظْهَارُ الْمَسْكَنَةِ لِلَّهِ وَالْإِفْتِقَارَ إِلَيْهِ وَانْكِسَارَ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَخَلْوَةٌ وَقَتِ نُزُولِ اللَّهِ (١٥) صُخْبَةٌ كُلُّ صَادِقٍ أَوَاهٍ

الثَّامِنُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: الْخُلُوعُ بِهِ وَقْتُ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ بِمُنَاجَاتِهِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **"يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"** (١).

فَالْخُلُوعُ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْإِنْطِرَاحُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمُنَاجَاتُهُ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّ مِنْ تِلَاوَةِ كَلَامِهِ وَذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ، وَخَتَمَ ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْإِسْتِغْفَارِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ امْتِلَاءِ الْقَلْبِ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

بَلْ أَصْحَابُ قِيَامِ اللَّيْلِ هُمْ أَهْلُ الْمَحَبَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَمِنْ اللَّطِيفِ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ يَجْمَعُ جَمِيعَ أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى السَّابِقَةِ.

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: **"تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ سَبَبٍ"**. وَأَهْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ لَا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَحَسَبَ، بَلْ يَتَوَمَّنُونَ بِهِ مُتَدَبِّرِينَ خَاشِعِينَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتَوَاطَأُ فِيهِ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

السَّبَبُ الثَّانِي: **"تَقَرُّبٌ بِالنَّفْلِ بَعْدَ مَا وَجَبَ"**. وَأَهْلُ اللَّيْلِ يَتَقَرَّبُونَ بِأَفْضَلِ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ. قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **"أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ"** (٢).

السَّبَبُ الثَّالِثُ: **"دَوَامُ ذِكْرِهِ بِكُلِّ حَالٍ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ"**. وَأَهْلُ اللَّيْلِ قَدْ تَجَافَتْ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الذِّكْرِ فِي وَقْتِ غَفْلَةِ النَّاسِ بِاللَّيْلِ، وَذَلِكَ أُخْرَى أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي النَّهَارِ وَفِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

(١) أخرجه البخاري في «الصحیح» (١١٤٥)، مسلم في «الصحیح» (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحیح» (١١٦٣).

السَّبَبُ الرَّابِعُ: "إِيثَارُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ". وَأَهْلُ اللَّيْلِ قَدْ آثَرُوا مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى شَهَوَاتِهِمْ، فَلَوْ شَاءُوا لَرَقَدُوا كَمَا رَقَدَ النَّاسُ، لَكِنَّهُمْ تَرَكُوا الْفِرَاشَ اللَّيْنَ الْوَثِيرَ لِمَحَبَّتِهِمْ الْأَعْظَمِ جَلِّ جَلَالِهِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: "شُهُودُ قَلْبِكَ جَلَالَ الرَّبِّ". وَأَهْلُ اللَّيْلِ فِي قِيَامِهِمْ وَتَدَبُّرِهِمْ لِلْقُرْآنِ يُطَالِعُونَ بِقُلُوبِهِمْ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُشْهِدُونَ قُلُوبُهُمْ جَلَالَ الرَّبِّ وَجَمَالَهِ وَكَمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السَّبَبُ السَّادِسُ هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ: "وَبَرَّهُ" أَيُّ شُهُودِ قَلْبِكَ بِرِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَإِحْسَانَهُ. وَهُمْ فِي قِيَامِهِمْ بِاللَّيْلِ يَتَفَكَّرُونَ فِي قِرَاءَتِهِمْ لِلْقُرْآنِ فِي آلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ. السَّبَبُ السَّابِعُ: "كَذَا انْكِسَارُ الْقَلْبِ". وَأَهْلُ اللَّيْلِ قَدْ قَامُوا مُفْتَقِرِينَ إِلَيْهِ، مُنْكَسِرَةً قُلُوبُهُمْ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ غَافِلُونَ يَغُطُّونَ فِي نَوْمِهِمْ.

فَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُ اللَّيْلِ بِجَمِيعِ أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى السَّابِقَةِ.

قَوْلُهُ: "صُحْبَةُ كُلِّ صَادِقٍ أَوَّاهُ":

الْأَوَّاهُ: الدَّعَاءُ كَثِيرُ التَّضَرُّعِ. وَأَصْلُهُ صِيعَةُ مُبَالَعَةٍ مِنَ الَّذِي يُكْثِرُ قَوْلَ "أَوَّه"، وَهُوَ اسْمُ فِعْلٍ مُضَارِعٍ بِمَعْنَى "أَتَوَجَّعُ".

التَّاسِعُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: صُحْبَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَالتَّقَاطُ أَطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ، وَالِاسْتِفَادَةُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَدَابِهِمْ. فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" ^(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: "لَيْسَ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي فَسَادِ رَجُلٍ وَصَلَاحِهِ مِنْ صَاحِبٍ" ^(٢). لِذَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّقَى لِلصُّحْبَةِ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ تَذَكَّرُ بِاللَّهِ صُحْبَتُهُمْ.

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ بِمَنْ اخْتَرْتَ خَلِيلًا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «السنن» (٤٨٣٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «الجامع» (٢٣٧٨).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ بَطَّةٍ فِي «الإبَانَةِ الْكُبْرَى» (٤٧٨ / ٢).

فَاصْحَبِ الْأَخْيَارَ تَعْلُ وَتَنْلِ ذِكْرًا جَمِيلًا
صُحْبَةُ الْخَامِلِ تَكُوسُ مَنْ يُؤَاخِيهِ خُمُولًا
قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ لِلْمُعِيرَةِ بْنِ حَبِيبٍ: "يَا مُعِيرَةُ، انْظُرْ كُلَّ جَلِيسٍ وَصَاحِبٍ لَا تَسْتَفِيدُ فِي
دِينِكَ مِنْهُ خَيْرًا، فَانْزِدْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ" (١).

وَالْبُعْدُ عَنْ كُلِّ الَّذِي يَحُولُ (١٦) فَهَذِهِ عَشْرٌ بِهَا الْوُصُولُ

الْعَاشِرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ. وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الذُّنُوبُ. قَالَ ذُو النُّونِ: "أَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ مَنْ وَاصَلَ الذُّنُوبَ نُحِّيَ عَنْ
بَابِ الْمَحْبُوبِ؟" (٢).

قَوْلُهُ: "فَهَذِهِ عَشْرٌ بِهَا الْوُصُولُ": قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- بَعْدَ ذِكْرِ الْأَسْبَابِ الْعَشْرَةِ:
"فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْعَشْرَةِ وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ وَدَخَلُوا عَلَى الْحَبِيبِ" (٣).

طُوبَى لِعَبْدٍ مُخْبِتٍ لِرَبِّهِ (١٧) قَدْ مَلَأَ الْحُبُّ شَغَافَ قَلْبِهِ

شَرَعَ هُنَا يَصِفُ حَالَ الْمُحِبِّ الصَّادِقِ. "طُوبَى" أَيْ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ "لِعَبْدٍ مُخْبِتٍ لِرَبِّهِ" خَاضِعٍ
لِرَبِّهِ، مُسْتَسْلِمٍ لَهُ، "قَدْ مَلَأَ الْحُبُّ شَغَافَ قَلْبِهِ" الشَّغَافُ -بِفَتْحِ الشَّيْنِ-: غِلَافُ الْقَلْبِ
وَعِشَاؤُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، أَيْ بَلَغَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا أَيْ غِلَافَهُ.

بَاحٍ بِمَا فِي صَدْرِهِ طَوَاهُ (١٨) إِلَى الَّذِي لَا يُزْتَجَى سِوَاهُ

"بَاحٍ" يُقَالُ: بَاحَ بِسِرِّهِ إِذَا أَطْهَرَهُ. "بِمَا فِي صَدْرِهِ طَوَاهُ" سَتَرَهُ وَكَتَمَهُ. "إِلَى الَّذِي لَا يُزْتَجَى
سِوَاهُ" سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَيْ أَبْتَهَ مَا فِي صَدْرِهِ فَلَمْ يَكْتُمَهُ إِلَّاهُ.

يُذِيعُ دَمْعُ الْعَيْنِ مَا فِي رُوعِهِ (١٩) وَيَكْشِفُ الْمَكْنُونِ فِي ضُلُوعِهِ

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٦٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٨٦ / ٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٣).

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٨٢).

"يُذِيعُ" يُظْهِرُ وَيُفْشِي. وَالرُّوْعُ - بَضَمُ الرَّاءِ -: الْقَلْبُ. وَالْمَكُونُ: الْمَسْتُورُ.

كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدٍ بَائِسٍ (٢٠) يَنْدُبُ سُعْدَى عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ

"كَمْ بَيْنَهُ" كَمْ بَيْنَ هَذَا الْمُحِبِّ الَّذِي أَحْبَبَتْ إِلَى رَبِّهِ وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ إِلَيْهِ، "وَبَيْنَ عَبْدٍ بَائِسٍ"

مُبْتَلَى. قَالَ سَيَبَوِيهِ: الْبَائِسُ مِنَ الْأَلْفَافِ الْمُتَرْحِّمِ بِهَا كَالْمَسْكِينِ (١). "يَنْدُبُ سُعْدَى"

يَدْعُوهَا أَوْ يَبْكِي عَلَيْهَا وَيُعَدِّدُ مَحَاسِنَهَا. "عِنْدَ رَسْمٍ" رَسْمُ الدَّارِ: مَا كَانَ مِنْ أَثَارِهَا لاصِقًا

بِالْأَرْضِ. "دَارِسٍ" يُقَالُ: دَرَسَ الرَّسْمُ إِذَا عَفَا وَخَفِيَتْ أَثَارُهُ.

حَدَا بِكَ الْحَادِي فَقُلْ: لَبَّيْكَ (٢١) إِنِّي إِلَهِي تَائِبٌ إِلَيْكَ

"حَدَا بِكَ الْحَادِي" الْمَقْصُودُ: دَعَاكَ الدَّاعِي. كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي أَبْيَاتٍ لَهُ (٢):

فَحَيَّهَلَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشُّوقِ فَاطُورِ الْمَرَاحِلَا

وَقُلْ لِمُنَادِي حُبِّهِمْ وَرِضَاهُمْ إِذَا مَا دَعَا: لَبَّيْكَ أَلْفَا كَوَامِلَا

يَا رَبِّي ارْزُقْنَا تَمَامَ حُبِّكَ (٢٢) وَهَبْ لَنَا مَا نَرْتَجِي مِنْ قُرْبِكَ

وَاعْفِرْ لَنَا وَعَافِنَا مَوْلَانَا (٢٣) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي أُخْرَانَا

فِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى سَبَبٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى يَنْبَغِي أَنْ لَا يُغْفَلَ، وَهُوَ

الدُّعَاءُ. وَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَائِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا فِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ: "أَسْأَلُكَ

حُبِّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يَقْرُبُ إِلَى حُبِّكَ" (٣).

(١) قاله ابن سيده في المحكم (٨ / ٥٦٢)، قال سيبويه في الكتاب (٢ / ٧٤): "والترحم يكون بالمسكين

والبائس ونحوه".

(٢) أوردها ابن القيم في مدارج السالكين (٣ / ٣٦٦)، وزاد المعاد (٣ / ٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٢٣٥).

قَدْ انْتَهَى بِحَمْدِ رَبِّي نَظْمِي (٢٤) وَيَا صَّلَاةَ وَالسَّلَامِ خَتْمِي

هَذَا آخِرُ مُدَارَسَةِ مَنْظُومَةِ "مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَالْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لَهَا". رَزَقَنَا اللَّهُ جَمِيعًا ذَلِكَ، إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمِيعٌ مُجِيبٌ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ فِي قُلُوبِنَا أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.